الإسلام رافد روحي حتمي لديمومة مدنية الغرب

الأستاذ الدكتور سليمان عشراتي
جامعة السانيا ــ وهران

من الواضح أن الثقافات الغربية تعاني اليوم من الشعور بالتزاحم والتدافع وانتهاك حرمة بعضها بعض.

وهي إلى ذلك تستشعر مخاطر المغالبة الخارجية التي تتهددها من جهة الثقافات القديمة لاسيما الثقافات ذات المنبع الديني مثل الإسلام .

لقد ثبت أن إشكال الاعتراض على ظاهرة الاختراق الروحي هو أخطر ما يواجه الدوائر السياسية والثقافية الغربية اليوم، فبعد أن تصرمت على أوروبا قرون أمضتها في العمل المستميت من أجل كبح جماح الدين المسيحي وتقييد دوره في الحياة الأوروبية افساحا لقوة الخلق المادي أن تنطلق وتحدث التغييرات المدنية والثقافية الشاملة، هاهي أوروبا تجد نفسها عارية أو تكاد من الكساء الروحي –القدسي– الحافظ للخصوصيات والمرسخ للهوية.

فأوروبا تعاني اليوم من تصاعد الطغيان الثقافي الأمريكي، اذ كادت أن تتأمرك بعد أن باتت قيم ما وراء الأطلنطي تسري في أوصال البنية الثقافية والاستهلاكية والرمزية الغربية بشكل متصاعد، ما برح أن تحول إلى عامل كبح في منافسة غير متكافئة شملت حتى المجال المادي.

فالتفاوت الكبير في امكانيات المنافسة التجارية والاستثمار والماركوتنغ جعل نشاط الرأسمال الأوروبي –وفي مجالات عدة– يتراجع، ليس على صعيد التجارة الدولية فقط، ولكن حتى داخل حدوده الوطنية ذاتها، وهو ما حتم على بعض تلك البلاد[1] أن تلجأ إلى ما يسمى بإجراءات الوقاية وحماية المنتوج الوطني، ولئن تركزت الدعوة في هذا المجال على حماية المنتوج الثقافي (الانتاج السمعي البصري عامة)، فالثابت أن الشعور بضرورة توفير التغطية للحياة التجارية والانتاجية عامة يزداد بازدياد المد الثقافي الأمريكي .

ولعل من العوامل التي هيئت لأوروبا أن تتوسع بحدودها السياسية وتضم بلاد أوروبا الشرقية في حظيرتها، هو المطمح الاقتصادي وإرادة خلق الفسحة التي تخفف من الضغط الذي يولده التدافع التجاري في ظل العولمة.

بالمقابل فإن ما يتهدد ثقافات الغرب من قبل مجتمعات العالم القديم هو الفاعليات الروحية التي يتوفر عليها هذا العالم، لا سيما فاعلية الديانات. وأخشى ما تخشاه أوروبا التأثير الذي بات يحصلها من قبل الديانة الإسلامية. فلا غرابة أن نرى الوسائل الإعلامية لا تفتأ توسع من مجال انفتاحها على الديانات الأخرى لا سيما البوذية والهندية وحتى الطوطمية. والدعاية لها في مسعى مكشوف وهو أن تعيق وتحدّ من عملية التأثير التي للإسلام.

فالديانة المسيحية في علاقتها بالفرد والمجتمع لم تعد مؤهلة لإعطاء الأجوبة الملائمة التي توفر للإنسان الغربي مستوى من الطمأنينة والتوازن الذاتي. وهو ما تكشف عنه أعراض الهستيريا ومشاعر الاكتئاب وانعدام الحماية التي تستولي على المجتمعات الغربية لمجرد حدوث هزة عنف.

فالفلسفات المادية التي انجرفت بأوروبا مع توالي القرون أعطت هذا الناتج الذي قوامه مجتمع عار من الحماية الروحية، مبتعد أكثر فأكثر عن ثقافة المقدس.. مجتمع لا يفتأ يتطلع - بصورة لا شعورية في أحيان كثيرة - إلى التشبث بأي سبب يكفل له التكيف مع محيطه المتمادي في الرقي المادي. ويجدد له من فسحة الأمل ووتيرة الحياة.

تشهد على هذا الواقع ظاهرة البحث عن الرموز وعن المساند المعنوية. وربما تنعكس هذه الظاهرة في سلوكات تترجم عنها ثقافة تأليه شخصيات الفن ونجوم الرياضة وأرباب الأيديولوجيات. وهي ثقافة تنم عن خواء وفقر في مستوى الروح وسيكولوجية الإيمان.. إنها الروحية التي ورثتها أوروبا من عهود الانكفاء عن الدين. فطالما استكرت الإنسان الغربي تباشير المفكرين والفلاسفة وأصحاب الأيديولوجيات الوضعية بمستقبل العلم والتطور واختراق أسرار المجهول. غير أن المضي في حصاد المكاسب المادية بهذا الشكل المتزايد والباهر زاد من حاجة الإنسان إلى المعطى الروحي، وقوى من تبني المجتمعات الأوروبية إلى بروز نزعة ربط الصلة بالعقيدة من جديد، ولما كانت صلة هذه المجتمعات بالمسيحية قد استرخت، بعد أن ترسخ الاعتقاد بأسطورية الحقائق الكنسية، كان البحث عن بدائل أخرى يزداد ويأخذ صورا شتى.

من هنا نجد الدوائر المهيمنة والمتعصبة نفسيا في مراهنة قلقة. إذ أن وضع الديمقراطية الثقافية في الغرب يهيئ للفرد أن يكون على تواصل بسائر الثقافات والديانات التي يجد حيالها ميلا أو رغبة في الاحتكاك بها أو اعتناقها. ولما كانت تلك الدوائر تدرك قابلية الإسلام وأهليته للتواصل الطبيعي والسوي مع مشاعر الإنسان. لا سيما الإنسان الباحث عن مصادر علوية توفر الطمأنينة والاتزان الروحي. فإنها باتت تخشى أن يجد الفرد الغربي طريقه إلى الإسلام أو أن يتعرف على حقائقه المبرأة. فلا غرابة –والحالة تلك– أن نرى منها كل هذا التشويه المتصاعد الذي يستهدف الإسلام والمسلمين.

فقيم الدين الإسلامي ترشحه لأن يكون بديلا بجدارة لغيره في مجال تمديد مدنية الغرب. إذ إنه الدين الوحيد الذي يرفض التجسيمية، لأن روحيته سماوية تنزيهية، تتعالى عن الخرافي والقصصي المفتعل. إنه الدين الذي جاء مؤهلا لصيانة الصحة النفسية والوقاية من الأضرار التي تسببها تلاطمات الحياة.

إن التطور المادي المستطير يتطلب واقيات روحية تحفظ حياة الإنسان، وهو ما توفره الديانة الإسلامية لا سيما من خلال شعائرها، وبالخاصة شعيرة الصلاة وما تغرسه في نفسية الفرد من رحمة وسمو وطمأنينة.

تعمل الديانة المسيحية اليوم جاهدة على تدارك ما فاتها من حيث مقاطعة المجتمعات المعاصرة، وتسعى بلا هوادة إلى إعادة انتشارها في أوساط الشباب بالخصوص، ويندرج في هذا الإطار ما يقوم به البابا ودوائر أخرى كثيرة بصورة معلنة أو خفية، وقد توسلت إلى هدفها الاستقطابي بانتهاج أحدث الأساليب، بحيث أخذت ظاهرة استقطاب الحضور تأخذ شكل تجمعات (البيك نيك) الملتقى المفرح[1]، لكن الناتج يظل محتشما. ما لبثت ظاهرة البيك نيك هذه قد تفشت في الأوساط الشبابية على نطاق واسع، وباتت الأوساط تمارس بها عديد التنفيسات والترويحات. بل قد باتت تجمعات الموسيقى الإلكترونية والفروسية الميكانيكية والتظاهرات الثقافية الأخرى (سباقات السيارات والدراجات ومهرجانات العروض الخ.) تأخذ أكثر فأكثر طابع التداعيات الروحية الطقوسية كالتي تتخذها قداسات الجموع مع البابا. الأمر الذي ينعكس سلبا على محصلة التظاهرات الدينية. إذ تنغمر هذه التظاهرات ضمن (موضة) ثقافة الاحتفال الشبابي الجماعي التي يتسع نطاقها في أرجاء العالم.

والثابت أن حاجة المجتمعات الأوروبية إلى الدين هي التي تحفزها أكثر على تبني ما يعوض عنه، مثل مناصرة القضايا العالمية والإنسانية والنافحة عليها، فكأن هذه المجتمعات تجد شيئا من تبكيت الضمير لقاء ما باتت تستبطنه النفوس من مشاعر الاستهتار بالمثل القدسية، أو لكأنها تجد من الفراغ والبطالة الروحية ما يشجعها ويدفع بها إلى النضال والإعراب عن مواقف التضامن العالمي.

فالنشاط المتزايد للمنظمات الإنسانية ، وتحركات الشارع الغربي والاهتمام الملحوظ الذي تبديه قطاعات من الرأي العام الغربي بمشاكل عالمية وإنسانية لمما يدل على تبني البيئة الغربية بصورة أكبر لتجاوز حالة اللاهم، وتبني القضايا الجادة، وعقد الحوار مع العالمين، وهو ما يقوي من امكانات التلاقح والتأثر الإيجابي بثقافات وديانات العالم الثالث والتعرف عليها، لا سيما الإسلام.

الأخلاق في الغرب

من الواضح أن مجتمع الاستهلاك قد تقبل أن يرتبط مع مصادر أخرى غير المصادر التقليدية في مضمار اصطناع القيم وتبني الخيارات.

لقد باتت الروحية التي تحرك الحياة في المجتمع الغربي هي روحية التجدد الدائم، ولما كانت الأخلاق أوتادا تتثبت بها العلاقات والأفكار والأحكام والرؤى وتحفظ المسار السلوكي والعرفي للمجتمعات. فقد باتت القيم الخلقية الموروثة تشكل ضغطا على النفسية الغربية، أو على الأقل على فئات الشباب.

لم يعد الإنسان الغربي يتساءل حول طبيعة الأعمال والأنشطة والهويات التي يقبل عليها، ذلك لأن الحياة في المجتمعات الصناعية قد كفلت لنفسها نظما وأعرافا من الأداء والسير لم يعد يتوفر معها للفرد مساحة واسعة للاختيار، فالمؤسسات التعليمية والتكوينية بدءا بالحضانة إلى آخر ما تنتهي إليه تجربة التكوين تربي الفرد على الإيمان بأهمية العمل والكسب وترسخ في نفسه الاعتقاد بأن الحياة هي الإطار الذي تكتمل فيه تجربة الفرد، ولا اطار هناك يمكن أن تتحقق فيه للإنسان تجربة أخرى، فليستهلك كل فرد حياته وفق التجربة التي يراها.

إن الإيديولوجية المدنية في البلاد المصنعة تحذف من مدونة التداول معاني الإحسان والتكافل، وتوكلها إلى جهات ومصالح إدارية وتشريعية تتولى النهوض بها. الأمر الذي يجعل تعاليم العقيدة السماوية على الصعيد العملي

والشعوري تتراجع وتنحسر، لأن المجتمع من خلال اسناده مهمة القيام بالواجبات العمومية والتضامنية إلى هياكل مدنية وإلى منظمات ودوائر جمعوية ونقابية يستغني عن تلك التعاليم الغيبية وعن ممثليها، إذ لم يعد لها في واقع المجتمع مبرر موضوعي من شأنه أن يضمن لها الصدارة ويدافع عن تعاليمها.

فالكنيسة[4] كما سنرى تكمشت أو كادت في الوقت الراهن، ومطالب الإنسان المعاصر وتطلعاته تجاوزت بكثير منطق الأخوة والرحمة والإحسان الذي كانت الدوائر الكنسية تكفله في عصور مضت. والرفاهية التي أتاحها التطور الصناعي والتكنولوجي قد قوت في الإنسان تلك الرعونة الروحية التي تجعله أقرب إلى الجحود، إذ لا يكف يرى دور المادة والعلم يتسع ويتزيد من وجاهة العقل الوضعي وقوة نفاذه، الأمر الذي يزج بالإنسان في مزالق الإلحاد.

فالإنسان بات في حياته يراهن على تنبؤات وسائل الإشهار والرصد والترقب في مضمار التموين والاستهلاك والمتعة، وبات ينيط حاجاته النفسية والجسدية بما تبثه وكالات البحث العلمي وخبراء الصحة والتغذية، وورشات التحليل النفسي من نتائج وإرشادات.

فالثقافة باتت إحصاءات وتوقعات في سائر المجالات، بدءا بحالة الطقس ساعة بساعة إلى رصد ما يكون للذبذبة النقال من تأثير على المخ والمزاج، وكل ذلك غطى على الحس الديني في روح الإنسان الغربي المعاصر .

ومما لا شك فيه أن الديانة اليهو-مسيحية نفسها قد اشتملت على بعض أسباب هذا الانبتات الملموس في العلاقة بين الفئات الغربية وبين الكنيسة، إذ أن مبدأ التضحية الذي تحمله فكرة إعدام المسيح تمنح هذا الشعور الذي يجعل الإنسان يركن إلى مقولة أن آثام البشر قد أزالها حادث مقتل المسيح، وأن الابن افتدى الإنسانية بدمه. ويترتب بطبيعة الحال عن ذلك القيد روح من التحلل ومن اللامسؤولية إزاء الوجود وإزاء تجربة الحياة، وهو ما يوقع في ورطة الإيمان بفلسفة العبث، وذلك ما نرى عليه حال بعض الأوساط في الغرب.

لقد طفقت الكنيسة تستقطب الناس والفئات من خلال الترويج لتعاليمها بمثل هذه الأفكار الإعتاقية، وهو ترويج لم يخلو من ديماغوجية مكشوفة، الأمر الذي كان له على المدى البعيد أثر سلبي تحصلي. إذ جنحت النفوس إلى توهم أن الإنسان مطلق الحرية في الحياة وأنه مخير في أن يحيا حياته على النحو الذي

يشاء مادام الرب قد تكفل بـ(دفع الفاتورة). فلا غرابة أن نرى ظهور نوع من الكنائس العصرية باتت تجتهد في ابتكار شتى الجاذبيات بحيث ادمجت في طقوسها كثيرا من الوان الترفيه التي هي في حقيقتها تمارين رياضية وأنشطة تجسم أكثر منها شعائر وتعاليم دينية.

ومما لا شك فيه أن المجتمع الغربي وجد نفسه رهينا لتأثيرات الإعلام، لأن مرافق الحياة الغربية تكيفت على الانصياع لثقافة الإعلام والإشهار.

فالإشارة الموجهة في الشارع والمترو وداخل القطار وفي البنايات السكنية وداخل مؤسسة العمل باتت تحل محل الإنسان وتؤدي الدور الذي كان له في البيئات القديمة. فلغة الصمت هنالك هي التي توجه، واختفاء الإنسان كمصدر للتوجيه والمراجعة هو حلقة أخرى من مسلسل التشييء الذي بدأ منذ أن قررت الفلسفة المادية موت الإله.

لقد سارت الفلسفة المادية ضمن اعتقاد بتأليه الإنسان. لكن التضخم الصناعي ما لبث أن نحى بالإنسان منحى العدمية.

إن مرأى الأفراد اليوم، وهم في الشارع والمقهى وعلى درجات السلم وداخل السيارة منهمكون في مكالمات هاتفية بواسطة النقال ضمن هيئة من الحركات وأمارات الانفعال والاستغراق لمما يؤكد هذا المآل المهووس الذي شاء الإنسان المعاصر أن ينتهي إليه حين امن بقدراته على تسخير الآلة وتفعيل التكنولوجيا والحلول محل الإله.

وإن ما يلوح في أفق المستقبل ليؤكد أن الوضع الإنساني بقدر ما سيتحقق له في حقل التطور من أسباب تسخير المادة والتحكم فيها، بقدر ما سيتهدد وجوده بتحولات خطيرة تمس كنه إنسانيته، لأن الإنسان ما انفك يغفل عن مراعاة ثوابت روحية أصيلة تتمثل في الإيمان بالخالق وحتمية الانقياد له والامتثال لإرادته والإقرار بعبوديته.

إن غياب السند الروحي الموصول بالإيمان من شأنه أن يخلي الساحة الإنسانية من المعالم الهادية، ويجعل ظهر الفرد عاريا وعرضة للطعنات، فإذا ما انحرف الإنسان وراء طغيان المادة، فسوف لن يبرح أن يبتلى بالاستلاب وبعض العصابية الوجودية، وهو ما سيجعله يتقزم أمام خوارق ما تصنع يداه، وسيفقده ذلك المصير خصائص إنسانيته التي أحلته محل التكريم الإلهي، وعندئذ لن يسعه إلا أن

يضحى مجرد شيء من أشياء التي يحفل بها الوجود، شيء منفعل وقد خلقه الله ليكون فاعلا بوعي واستنارة.

لقد دلت النتائج الأولية على أن تسخير الآلة سيلعب دورا كبيرا وخطيرا في حياة البشرية مستقبلا، ولذا سيكون على الإنسان أن يتهيأ لعبودية الآلة، لأنه قد رضي بأن يوليها الاعتبار الذي أفقده دفء الروح ونعمة الإيمان بالخالق.

إن ما تسجله الإحصائيات الغربية في أوساط الشباب بالخصوص حيال ظاهرة إدمان الألعاب الالكترونية واستهلاك ما تبثه المحطات السمعية البصرية وشبكة الأنترنات وغيرها من مواد التلبية، قد كشف عن ظهور سلوكات جديدة، مرضية، متوحشة، وكل ذلك يندرج ضمن المسار السيكو-تكنولوجي الذي باشرته حضارة تراهن على أن تصنع الإنسان الآلي.

لقد أشرنا إلى شيوع ظاهرة الكلام الانفرادي كما كرسها استخدام النقال، وما تجسده مواقف المكالمة بالنقال من أعراض الخبل والبله.

لقد طفقت الأعمال المسرحية تصور الإنسان الممسوس وتشخصه على هذا النحو الذي بتنا نرى عليه الأشخاص حين تستغرقهم مكالمة بالنقال، الأمر الذي يؤكد أن الإنسانية سائرة في طريق جديد، لا قبل لها به، طريق لن تسلم معه الخصوصيات الفطرية السامية من أن تتنسخ وتحل مكانها طبيعة أخرى، طبيعة صناعية، آلية، عديمة الحس الإنساني، لأنها تلقت قيمها من ثقافة اصطناعية مادتها الصورة المبيحة، المحمومة، الصورة التي ابتدعها خيال جانح، عديم الإيمان، عديم وازع التقديس، يؤمن بالقوة والفتك والعدمية.

ومرة أخرى نقول إن الكتاب المقدس نفسه قد حوى في بعض متونه مشاهد من دمار كوني، لاشك أن الأدب والمخيال الغربي قد وظفها في ابتكار هذه العوالم الدمارية كما باتت أشرطة السينما تجسدها.

لقد فتك الإعلام المعاصر بقيم الطهر، واستخف بمعاني الطهارة البينة، إذ جعل الجسد حقلا للشهوة والغواية، وصورا توطن في النفوس وازع الخطيئة والتأثم.

فالإنسان المسيحي الذي ظل يتلقى تعاليم ومواعظ إنجيلية تحذر من مغبة الوقوع في الغواية وتخوف من عاقبة السقوط في الإثم، باتت الدعاية الإشهارية تغذيه بمكر لا يقاوم ألوانا من القيم المضادة، وذلك من خلال توظيف شيطاني

لجسد المرأة بحيث جعل الاعلام الإشهاري من الجسد الأنثوي مادة (التسليع) والاشتهاء وعرض المفاتن.

إن ما تدرجت الثقافة اللائكية والآداب الإباحية في ترويض الفطرة وتكييف الأذواق عليه من الفجاجة والعري، باتت الدعاية التجارية الفاسقة تصدم به مشاعر المشاهد دفعة واحدة وبإصرار لا هوادة فيه. فالماركوتنغ الإشهاري قد فاق بكثير تلك الأساليب التي تصدت بها كتابات الإباحيين إلى هدم أخلاق الحياء والفضيلة.

لقد أوشكت المستهلكات والمقتنيات التجارية جملة، أن تقترن اشهاريا بحضور جسد المرأة. ولا شك أن هذا الخط الاشهاري المتعنت يمثل تلك الروح الهدامة التي تتصدى بها مدنية العصر الحديث لتعاليم الانجيل والكنيسة، إذ لا يمكن لتعاليم من شعاراتها وجوب اتقاء مفاتن المرأة أن تصمد أمام مثل هذه الثقافة الإعلامية المفسقة.

وهكذا يتكشف لنا أن القيم الإعلامية التي توظفها المدنية المعاصرة هي قيم مسخرة ضد الفطرة، إذ أنيط بها استزراع طبائع مضادة للحس السليم، ولا يفتأ الإشهار يعمم هذه القيم ويصعد من مستويات عريها ويروض عليها روحية المجتمع المعاصر، تلك الروحية التي باتت تعكس طبيعة جانحة نحو التوحش والضلال. روحية ابتعدت عن تلقائيتها السوية التي ميزت الإنسان عبر الأزمنة الطويلة، يوم كان موصولا بحبله السري إلى السماء من حيث يستمد طمأنينته المادية والروحية.

لقد أوشك الإنسان الغربي أن يفقد فطرته في مجال الوجدان الديني، إذ انتمى إلى مدنية صناعية أورثته سيكولوجية غشوما، فعُنْفُ الآلة وبرودتها وخرسها أحوال انتقلت إلى الإنسان الغربي وختمت على طبعه فاكتسب من ثمن خصائصها.

بل لقد وطنته حياة المعامل وهدير الآلات على أن يعيش وضعا من الرتابة والعمل النمطي الذي تتحول به الحياة إلى حال من الجفاف والثقل والوطأة، وهو ما تترجمه أجواء السأم التي ترزح تحتها حياة المدن الصناعية.

من هنا نتوقع أن يكون تضرر المجتمعات العربية بالغا إذا ما تمادت الثقافة المادية في تصعيد هجماتها وتحديها المعلن للقيم الدينية.

ومما نسجله هنا أن المجتمعات الغربية بدأت تظهر ما يدل على أنها باتت تعي خطورة ما يتهدد القيم والثوابت في بيئاتها. لذا لا تعدم اليوم تصاعد الأصوات الرافضة للمضي على هذا السبيل الخطير.

ومن المنتظر أن يكون رد الفعل الإنسانية مناسبا لكي يكون قادرا على كبح الجماح، وإلا فإن الخسائر ستكون جسيمة.

لا يعني بناتا أن حال المجتمعات الغربية هو كله تسفل وسقوط وليس شيئا آخر، بل لقد تعرضنا لظواهر اعتبرناها وجها يسيء على المدى البعيد للمنجزات الرائعة لهذه الحضارة التي استطاعت أن تحقق للإنسانية من المكاسب والترقيات ما يضمن مستويات من سعادتها.

وحين نتأمل تلك الأعراض السلبية التي تشوه الوضع المدني الراهن فربما نميل إلى الاعتقاد أنها ضريبة التطور، إذ لكل حظ من الرقي المدني إفرازاته السلبية، والعبرة بالمكاسب المتحققة للإنسانية بفضل تطور هذه الحضارة.

حقا إن هناك انحرافات سياسية وطغيانا باديا في كثير من الأحيان وإجحافا من قبل الأغنياء والرأسماليين في حق الأمم والشعوب الفقيرة، لكن ردود الأفعال الجماهيرية المتزايدة في البلاد الغربية كما تسجل بين الحين والآخر، وتصاعد الأصوات بشعارات إنسانية في مناسبات عدة نصرة المستضعفين ومناصرة للمقهورين، يجعلنا نطمئن إلى أن محبة الخير لن تموت من قلب الإنسان.

إن الاستعداد للخير والاستجابة لنداءات الحق حال ثابتة في الإنسان، وإذا ما تهافتت القوى الرأسمالية واللوبيات الكارتيلية الغربية وجنحت إلى السير بالإنسانية نحو المآلات المسدودة، فذلك سيعيق من مطامح التضامن الإنساني ويئيز من أمل توطيد القيم المشتركة بين البشر. إن إصرار قوى الابتزاز على استبقاء الأحوال على وضعها المختل في مجال تقاسم المكاسب والمنافع، يؤكد أنانية هذه القوى وعدم قدرتها على الارتفاع إلى مستوى المثل الإنسانية.

وإذا كنا ندرك أن خلو العالم من الشر أمر خيالي و(يطوبي)، فالمؤكد هو أن تفاقم الاختلالات يتقوى بتمادي الإنسان في اقتراف الشرور.

وإذا كنا كذلك نشعر بأن منطق المدنية الصناعية قد سار في خط نفعي، مناهض لتعاليم السماء، نابذ للقيم القدسية والاعتبارات الروحية، فذلك يعني أن مخاطر الحيدة عن الطريق كامنة في طبيعة هذه المدنية بروحها الصراعي، على الرغم مما تزخر به محاصيلها من خير.

وبما أن الإنسان غالبا ما يميل عن الجادة كلما توافرت أسباب رخائه ما لم يكبح فيه الدين ذلك الجنوح، فلا ريب أن إمكانات المدنية الغربية لا تكف عن التوسع في مضمار المكاسب والمنافع والرفاهية، وهو ما يفاقم من وضع الإنسان بوصفه روحا وأخلاقا. إذ الرفاه المتوحش هو الذي يشجع في الغالب على إفراز ثقافة الفاحشة والعري الأخلاقي. هذه الثقافة التي تتمادى في تعميم قيمها وسائط الإعلام الغربية اليوم. ثقافة تعكس خلفيات تعسة، تتغذى بأفكار التفوق والاعتداد (الكزينوفوبي Xenophobic) المقيت.

والمؤكد أن مصادر التهذيب الروحي والأخلاقي في المجتمعات الغربية، لا سيما الكنيسة والمنشآت الاجتماعية التقليدية (الأسرة والمدرسة إلخ..) أضحت تعاني من وطأة الرفض، وتواجه المروق المعلن وتحوّل القلوب والضمائر عنها، بل وأكثر من ذلك لقد صارت موضوعا للاستهتار من حيث الطعن في قيمة دورها كفاعل مؤثر وموصل للقيم ومثبت للأخلاق .

ومن الواضح أن ما يجعل المجتمعات الغربية تستمر على وضع الاحتفاظ بتماسك بناها الاجتماعية هو اطراد نظمها المدنية ومضيّها على السير في الخط المرسوم لها، هذه النظم التي تستمد مبادئها من الروح الكتابية التي تحولت في صورة ثقافة مدنية وسلوكات وأعراف وقوانين وتنظيمات إنسانية تضبط مناهج الحياة، وهو ما يكفل للمجتمع هذا التوازن الذي استطاع أن يساير آليات التطور والإنتاج بمرونة متجددة.

وما نراه من سرعة تأثر الفئات في بلاد الغرب وثورتهم إزاء ما يطرأ من تغير على وتيرة الحياة ونظم العمل (إغلاقُ المعامل مثلا) لهو دليل على فراغ القلب من شحنة الروح والإيمان. فهم يجهلون معنى التوكل ومعنى أن تكون حظوظ الرزق في يد الله.

ولعل الفارق يقوم بين المسلم والأوروبي من هذا الصدد بالذات، إذ وازع الإيمان يجعلنا نحن المسلمين لا نهتم كثيرا بأمور المستقبل، إذ يسكننا حس الكفالة الإلهية، ويمنحنا هذه الطمأنينة التي لم نعرف كيف نرتقي بها لنخرجها مما لحقه به الانحطاط ، إذ حولها إلى استسلام وعجز.

لقد أفرغت ضغوط المدنية الصناعية المشاعر والنفوس من مرصود قيم الروح الذي تسكن به النفس وتجد القدرة على مقاومة الهزات والنوازل.

لقد باتت مراجعة النفساني مثلا، والخضوع لجلساته الترميمية حالا لازمة في المجتمعات الغربية كلما اختل الوضع وخرج عن البنية المعتادة التي يسير عليها في تلك المجتمعات. لقد حل النفساني عندهم محل الكاهن من حيث أهليته في تلقي الاعترافات والبوح بالمكبوتات والمضمرات المزمنة التي تتخفف بها النفس من عقدها.

ولكن كل ذلك على شيء فإنما يدل على التحول الكبير الذي اجتاح القيم التقليدية، إذ التقدم النوعي المنجز أوجد مصادر أخرى لتصنيع القيم الملبية لحاجة الروح وثقافة العصر.

وإذا كانت مجتمعاتنا المتخلفة قد شرعت في السير هي أيضا على هذا الطريق، وباتت وتشعر بالحاجة إلى التوسل بمثل تلك الأساليب التي يتبعها الغرب في حل المعضلات النفسية مثلا. فذلك لا يعدو في أحيان كثيرة أن تكون حالا من التبعية. إذ لا زالت بيئاتنا تتوفر على المسجد والمزار، ولا زالت تؤمن بكرامات أهل الله وبتأثير الآيات، ولا زال دور هذه العوامل الروحية يحتفظ بشيء من قوته وفاعليته.

وحين نجد أنفسنا في حاجة أحيانا إلى استخدام الأساليب المدنية المعاصرة، فذلك أمر طبيعي أيضا، لأن المجتمع يشق طريقه على خطا التمدن. ولذلك يتحتم عليه أن يصطنع بعضا من أساليب العصر.

الكنيسة تتقهقر أمام وتائر الجموح الصناعي

قلنا إن التطور الحضاري والمدني قد جنى على الكنيسة في العالم الغربي، إذ أفقدها الصدارة التي كانت لها إلى وقت ليس بالبعيد في المجتمعات الغربية.

ومما يلاحظ في هذا السبيل هو استماتة الكنيسة في استرجاع دورها كمصدر للترشيد الروحي والقيمي، لكن التحولات الكبرى التي شملت الحياة الفردية والجماعية تستبقي دور رجال الدين خارج الحلبة. إذ لم يعد لدورهم من كبير جدوى يُعتدّ بها في حياة طغت عليها المادة وغاب عنها البعد الغيبي.

فالكنيسة نفسها تواجه قوى اجتماعية واقتصادية وثقافية نشطة ومصممة على حفر مزيد من الخنادق بين الفرد الغربي والمثل الكنسية. فلا غرو أن تتحول الرياضة نفسها إلى نوع من الديانة الجماهيرية وأن تغدو ساحاتها مجالا لطقوس

تشبه طقوس العبادة، وكل ذلك يندرج ضمن ثقافة الإزاحة والاستعاضة القيمية وتجاوزها إلى اعتناق بدائل تحل محلها.

وإذا كان الاجتهاد الكنسي[1] قد أظهر من المرونة التكيفية بحيث رأيناه يقدم على تنازلات تمس لب العقيدة المسيحية. من قبيل كسر تقليد عزوبة الراهب والرخصة له بالزواج، ومثل تقبل زواج الجنس المثلي، و..غيرها من الخطوات التي تعد تجاوزا فادحا في التقييدات الكنسية القديمة، فالثابت أن مثل هذا التكييف يزيد من مشاعر الاستهتار التي لا تفتأ ثقافة التطور تنظر بها إلى الكنيسة وتقاليدها، الأمر الذي يعمق من المسافة بين المجتمع والمؤسسة الدينية الكنسية، ولن يكون الناتج إلا مزيدا من الحيدة عن قيم الكينونة.

إن تساهل الكنيسة في سياستها مع المقتضيات المدنية المعاصرة سوف يلحق بها أضرارا جسيمة، وأقل ما يمكن أن يصيبها هو تشرذمها، وهو ما بدأت بوادره تظهر للعيان هذه الأيام في بريطانيا مثلا على إثر تنصيب لذوي الشذوذ بعض رجال الكنيسة homosexuel.

إن افتقاد الضوابط يفتح الطريق أمام النزائع والنزوات ، فهو يقصي قيمة الحرمة، وإقصاء الحرمة وضع تزول معه مشاعر تعظيم المثل. وإذا ما افتقد الإنسان وازع التعظيم زايلته معاني القداسة، وكل ذلك يتهدد اليوم العقيدة المسيحية، بل إن روح التجاوز التي تميز الشريعة المسيحية (الخمر، عقيدة الاعتراف ، التكفير) تجعل من المسيحية عقيدة بلا صرامة، عكس ما هو عليه حال الإسلام.

إن صرامة التعاليم التي يلتزمها المسلم تنتهي بجعله مقيدا في ما يأتي من أفعال ومعتقدات على الدوام، إن التشدد الشرعي يربي النفس على اليقظة ويرسخ فيها حس مراقبة الذات، وهو ما يقلل من الخروقات في سيرة المسلم، إذ تصده الموانع عن اقتراف الآثام.

ولو اعتبرنا بموقف الإسلام من الخمر مثلا، لرأينا أهمية الحسم التي عالج الإسلام بها مسألة تعاطي هذه المادة ،عكس المسيحية، إذ أن عدم حرمة الخمر يجعل الطريق مفتوحا أمام تعاطيها، وهو ما قد يستجلب معه اقتراف بقية الكبائر.

من هنا كانت نجاعة الدين الإسلامي ثابتة ، فهو دين لا يحتجز حياة الفرد في برنامج من الطقوس أو الرياضات والاعتكافات كما تفعل ديانات أخرى ، كما

أنه دين لا يتساهل مع الفرد بحيث يعطيه مساحة من الترخيصات لا يتبين معها الحرام من الحلال . إنما الإسلام دين يتوفر على اهم عوامل تختم الروح في العمق بطابع الايمان وتثبتها على النهج الفطري السليم، وهذا بفضل البساطة التي تسم شعائره، وبفضل جماعية هذه الشعائر كذلك. فالصلاة والحج والصوم والزكاة كلها أنشطة روحية وثقافية تتم ضمن إطار الجماعية وفي توقيت واحد، وهي شعائر تلازم الحياة بصورة انتظامية لا تنفك عنها، الامر الذي ينتهي بصك سلوك المسلم ومواجده على القالب الذي ارتضاه الإسلام له. فلقد امتلك الإسلام، بوصفه شعائر ملازمة للحياة، خصوصية تجنيدية، وهي حال لا تخلو من عناء، لكنه عناء مثمر، لأنه يصون النفس ويضعها على استعداد للعمل الصالح. وسترتد الإنسانية حتما بعد أن تجرب مزيدا من أحوال الزيغ والأهواء إلى تعاليم الإسلام، لأن الرشد الانساني سيجعل البشرية تتطلب من العقائد ما يصلح حالها ويعيد اليها إنسانيتها.

لقد بدأ النشاط الايديولوجي الجماهيري في الغرب يسترد حيويته في وقتنا الراهن، وذلك لا يعبر إلا عما يطبع روح الإنسان من شغف بالمثل واستعداد للمناضلة من أجل تجسيدها. فحين ترى الوفود في حركة ما يسمى L'alter-mondialiste تتلاحق في المواسم وتقيم التجمعات الحاشدة، وتنادي بالعدالة الانسانية والإخاء، فذلك يعني أن تلك التنظيمات -ومن خلال ما تمارسه من دور دفاعي ونضالي- قد حلت محل موسسات اجتماعية وروحية وسياسية تقليدية (مثل الكنيسة والأحزاب وما إليها).. في النهوض بالدور النضالي الإنساني.

وفي ذلك ما يدل على تجدد وعي المجتمعات المتطورة بدورها إزاء الإنسانية.

ومما لا شك فيه أن الروح التي تحرك مثل هذه التنظيمات الانسانية تتلاقى في الجوهر مع روح الدين، لا سيما الدين الإسلامي، لذا يغدو من الحكمة مد حبل التواصل بين الجمعيات المدنية في البلاد الإسلامية وهذه الحركات. فمن شأن ذلك أن يقوي من جبهة القوى العالمية الداعية إلى الخير.

ومن المفيد أن يتكيف موقف المسلمين من حيث النظرة الى ما تقوم به الكنيسة في مجال التقريب بين الشعوب والثقافات والأديان، إذ أن المردود الذي نعتقد أن الانسانية ستجنيه من وراء أي فلاح يتحقق لأي دين من الديانات السماوية السوية سيكون مفيدا، لأن ذلك سيكون انتصارا لمبادئ الخير وتعزيزا لقيم السلام.

الإسلام يحل بديار الغرب

ومما يشاهد اليوم ظاهرة انتقال الإسلام إلى البيئات الغربية وهذا من خلال ما استوطنها من جاليات عربية ومسلمة وفدت على الغرب لدواع شتى وفي ظروف مختلفة.

لقد بتنا نسمع رجال الفكر الغربي يؤكدون أن المجتمعات الغربية تتعرف اليوم على الإسلام مباشرة بعد أن كانت تعرفت على المسلم في عيون الاستعمار.

ومما لا شك فيه أن طبيعة الإسلام ومبادئه هي التي أعطته هناك في بيئة الغرب هذه الصبغة المتميزة والمعبرة، فشعيرة الصلاة مثلا من أقوى عوامل لحم الجماعة وإبرازها كصف متراص، يضبطه وازع روحي ذاتي، ذلك أن إقبال المسلم على المسجد هو سلوك شخصي يجعل من ظاهرة الإقبال على بيوت الله وحضور مواعيد الصلاة، لدوة ينظمها الإسلام بفرائضه وليس بتأثير من بواعث أخرى تمارس على المسلم أو تلزمه ما لا يريد أن يلتزم به.

وكون الصلاة عبادة تتكرر في اليوم مرات، جعل من الدين الإسلامي عقيدة روحية واجتماعية جماعية، إذ أن تكرار العبادة والقيام بها في مواقيت من النهار معلومة، يضمن للفرد شرط إدامة صلة التلاقي والارتباط مع الجماعة. وهو ما جعل الإسلام أهم العقائد التي كفلت إمكانية التوسع والانتشار والتفتح على الأمم- فهو دين عالمي بلا منازع- يصون لحمة الجماعة ويحكم الروابط بينها. الأمر الذي يحقق للفرد طمأنينة الانتماء، إذ تواصله الدائم مع المسجد والجماعة هو أقوى واق له من التلوثات التي تعج بها الحياة.

إن صبغة التظاهر والتلاحم التي تكفلها الصلاة للمسلمين في المجتمع الغربي تُعدُّ أكبر مستقطب للناس هناك. فالنشاط التعبدي الدائم الذي ينهض به المسجد لن يبرح أن يتكشف للأوروبيين على أنه أهم العلاجات الروحية القادرة على إسعاف مرضى النفوس والمحبطين ومهزوزي المعنويات.

لقد غدا الفعل التعبدي في بلاد الغرب مظهرا يلفت الأنظار بسبب ما لحق الدين هناك من هجر. لذا تجتهد الكنيسة اليوم في خلق المناسبات العامة لتنظيم لقاءات القداس المفتوح.

بل لقد باتت الفئات والجمعيات المسيحية لا تكف عن تنظيم التظاهرات الدينية المحددة حيث يتاح للجموع أن تمارس من العادات والشعائر المسيحية ما يحيي قيمها.

لقد باتت الكنيسة تلقى المنافسة من طرف التنظيمات السياسية والمدنية في هذا الصدد. فمن تنظيم ما يسمى بالجامعات الصيفية إلى تنظيم تجمعات المناسبات الثقافية (الموسيقى، الشعر، المسرح، الخ...) وهي جميعا تظاهرات عمومية باتت محجات تشد الجموع إليها لما يجدون فيها من أثر نفسي.

ومما لا شك فيه أن تأدية شعيرة الصلاة، وخاصة صلاة الجمعة لهو مظهر يشد الانتباه ويترك أثره على المدى القريب والبعيد في تلك البيئة التي بات غياب الدين والتظاهرات الروحية يترك نتائجه السلبية عليها.

ومن الثابت أن هناك نوعا من التقبل بل ومن الجاذبية نحو نوع من الديانات الروحانية ذات الطابع الاعتكافي مثل البوذية جعلها تحظى لدى فئات معتبرة من الغرب بالاهتمام والتعاطف، إلا أن هناك تفتحا ملموسا على الإسلام. وإذا لم يبلغ بعد الوتيرة المتسارعة المرجوة فذلك لأن القوى المعادية لا تفتأ تصعد من حملات التشنيع والتشهير ضد الإسلام والمسلمين.

إن قوى اليمين المتطرف والقوى الصهيونية الحاقدة وقدامى الأقدام السوداء في فرنسا وأخلاطا من النفايات المنسلخة عن أصالتها. إن هؤلاء جميعا يتعاضدون في مناهضة الإسلام والنيل منه، ولا تكف الدوائر الغربية المعادية توظيفهم وتوسع لهم المجال في برامجها وتظاهراتها كي يوجهوا الضربات للإسلام. فالخطة المتبعة هي التشنيع ضد الإسلام وبناء الجدران بين الإنسان الغربي والإسلام حتى لا يتم الاحتكاك به، لأن بقاء الفئات الغربية على جهلها بالإسلام يكفل بقاء الغرب منغلقا في وجه هذا الدين الذي لا يقاوم.

ومما يسجل هنا ظاهرة تسلل الإسلام إلى الأوساط الغربية بيسر ملموس، فلقد اتجهت مثلا الفيالق العسكرية الأمريكية في حرب الخليج الأولى إلى المشرق العربي محاربة، وحين عادت عادت وأعداد من الجند مسلمون. قد اشهروا إسلامهم بمجرد تأثرهم بمن احتكوا بهم من البيئة الخليجية المسلمة.

من هنا لا يخطئ من يتنبأ بأن مستقبل الإسلام سيكون في أوروبا والغرب، ذلك أن الإنسان الغربي قد استوفى كثيرا من المؤهلات النفسية التي

أتاحها له التطور المادي، الأمر الذي جعله يغدو على قابلية كبيرة للإفادة من تعاليم الإسلام ومن نظمه الروحية والنفسية.

وإذا كانت الثقافة الصوفية قد طفقت تلقى من يتجذب إليها من أبناء الغرب، فذلك لأن الإسلام قد توفر على مناهج حية تجد فيها الروح حاجاتها على الدوام، لا سيما في عصر تكاثرت هزاته.

فكون الإسلام شريعة يمكن أن تغدو رافدا روحيا مشروعا يستفيد منه الغرب ويتبناه كعقيدة مؤهلة للحياة ولتجاوز التعقيدات الاجتماعية أمر وارد، وتسريعنا -كمجتمعات مسلمة- لعملية انتشار الإسلام يقتضي منا إصلاح ما بذاتنا من عوج ونقائص واختلالات مدنية وسلوكية.

ومن تصاريف الخالق أن جعل المسلم -أيا كان مستواه- مبلغا بمسلكه ولسانه وعلاقاته ومواظبته على تأدية فرائضه، وذلك يعد أهم دعاية تشهر لفائدة الإسلام. فهل يدعي كل مسلم اليوم أنه مؤهل لأن يكون سفيرا من لدن الخالق يحمل رسالته المحمدية إلى العالمين؟

ما أشقها مسؤولية.

ومن الأسباب والعوامل التي تسهل اندماج العالمين في الإسلام، وجوب العمل بكيفيات مثمرة وفعالة على تغيير أحوالنا الاجتماعية والمدنية، وإنجاز البرامج الكفيلة بأن تخرجنا من التخلف، فالترقية الاقتصادية والمدنية هي خير دعاية يقوم به المسلمون لصالح الإسلام، أما بقاؤنا دولا متخلفة وعلى هذا المستوى من الانحطاط ، فلا يزيد إلا من حال التبوين التي عليها الإسلام اليوم.

إن ما ينال العقيدة المحمدية من تشويه من قبيل وصمها بأنها عقيدة تشجع الإرهاب، يجعل مسؤوليتنا كمسلمين كبيرة في تغيير الصورة والرد على هذا الاتهام المغرض.

وربما نعترف في هذا المقام أن الثقافة الإسلامية ما زالت في حاجة كبيرة إلى التنقية مما لحقها من شوائب أساءت لجوهرها السماوي، نتيجة تبني أوساط جاهلة لها واحتراف هذه الأوساط الفتوى والقيادة الفكرية والروحية للأمة.

ومن المؤكد أن قصور الدول الإسلامية ونظرتها إلى الدين وعدم تبنيها الخطط التي تجعل منه سياجا ثقافيا يفيد ليس فقط في تقوية الأسس الروحية للمجتمعات الإسلامية ولكن أيضا وسيلة ناجعة لبناء الإنسان المسلم الفاعل..إن هذا التقصير مدان، ونتائجه لا تفتأ تتكبدها الشعوب الإسلامية، من هنا وجب الإسراع

بالتكفل بالثقافة الإسلامية وبالشريعة، وأعطاؤها المكانة التي تستأهلها حتى تقطع الطريق على القوى المتاجرة بدين الله.

ويتوجب في هذا المجال التعجيل بإعادة النظر في التشكيلات والهياكل والمؤسسات الدينية وواجهات التمثيل الإسلامي، بحيث يتولى التنشيط فيها أولو القدرة والكفاءة الحقيقية. إذ بقاء هذه المرافق في يد المعوقين علميا وثقافيا وتخطيطيا يفاقم من الوضع ويلقي بتبعية الضعف والقصور على الدولة، إذ تظل مدانة أمام الرأي العام المسلم.

كما ينبغي العمل على خلق الفضاءات الإعلامية والتثقيفية الإسلامية. وربما ستقتضي الضرورة فتح قناة دينية وطنية تتكفل بنشر الثقافة الإسلامية، فمن المؤسف أن نسمع الجزائريين والجزائريات يراسلون أو يهاتفون المحطات الأجنبية بفتاواهم، وليتها كانت فتاوى تستحق التصدير، الأمر الذي يدل على مدى الفراغ الفادح عندنا في مجال التداول الديني والثقافة الشرعية الإعلامية.

وبالنظر إلى صلتنا العضوية بالغرب لا سيما فرنسا من خلال القرب الجغرافي ووجود جاليتنا بحجمها المعتبر، يتوجب علينا أن نسهم في تغطية الفراغ الروحي الذي تعيشه الأوساط المسلمة هناك. إذ الدولة الجزائرية مطالبة بأن تضاعف من نشاطها التنويري لفائدة جالياتنا في المهجر، وأن تتحمل مسؤولياتها كاملة في مجال تلبية الحاجة الدينية للمسلمين بفرنسا على الأقل. فمن نتائج القصور والتقصير ما بتنا نراه من تقدم دول شقيقة علينا في مجال استقطاب الجاليات المسلمة وإلحاقها بركابها، بل لقد رأينا من الدول الشقيقة ما يوسع نشاطها التحسيسي والهيكلي حتى إلى إفريقيا.

إن النشاط الديني الذي تبذله هذه الدول في ما وراء حدودها هو من صميم الفعل الدبلوماسي. ونتائجه مهمة بالنسبة للإنسان المسلم وخاصة في ميدان توطيد روح السلم العالمي وتفاعل الشعوب. إذا ما تجاوزت النظرة إلى ذلك النشاط مقاصد الاستحواذ السياسي المرحلية.

وإذا ما أردنا أن نقتدي بالدول العربية في هذا المجال فعلينا أن نفعل بعض ما تفعل. فهي على الرغم مما لنا من إمكانات لا تبدو بها في حاجة مطلقة إلى بذل الجهود في مجال تصدير ثقافتها وقيمها إلى الخارج من أجل تقريب الشعوب إليها. إلا أننا مع ذلك نراها ترصد الميزانيات وتوفر الطاقات المجندة

وذات الخبرة والتمرس من أجل توسيع نطاق حضورها الثقافي والديني خارج أوطانها.

إن المجال يتسع للجزائر أكثر من غيرها في أوروبا، بل وحتى في بقية القارات، لا سيما في افريقيا، كي تتعاطى التنوير الثقافي، وإن الحقل يتسع لنا في مجال نشر الشريعة الاسلامية والتنوير الديني. لكن تظل الكيفية التي ينبغي أن توجه بها الجهود والطاقات أمرا ملحا. لأنه لا يكفي فتح مركز ثقافي أو مرفق تعليمي أو إعلامي في جهة ما لتكون النتائج مثمرة ما لم نوفق في إيجاد الهياكل الصالحة المؤهلة، وليس المتاجرة.

إن الهياكل غير المؤهلة وعديمة الفاعلية وبعد النظر تتحول في هذا المجال إلى واجهات تضر بالدين وتشوه السمعة وتنفر الناس مما تطلعوا إليه من القيم والثقافة.

إن إعطاء دور جديد مثلا للملحقات الثقافية على مستوى السفارات الجزائرية في فرنسا وبلاد المغرب وافريقيا يبدو أمرا واردا. كما أن فتح قناة دينية وحضارية تبث لأوروبا وافريقيا باللغات الأجنبية يغدو حاجة لا مندوحة عنها.

إن الدين بات حاجة معرفية وحضارية بالنسبة للإنسان المعاصر. لذا نحتم أن ندرس الأساليب الترويجية المفيدة وأن يعتمد منها الأنجح والأكثر تأثيرا.

لابد أن تشارك هيئات وطنية في تنفيذ برامج التنوير. فكثير من الوزارات معنية بالحدث الديني باعتبار الدين معرفة وثقافة وعلم. ورصد الجهود والإمكانات والخبرات يحتم خلق آليات تنفيذ مشتركة.

هناك عناصر من أبناء الجالية الإسلامية بدأوا في الظهور الفعال على الساحة الإعلامية الغربية، وواجبنا وواجب جامعاتنا المتخصصة أن تدعم هذه الجهات العاملة. لأن خطابهم يمكن أن يكون نواة لخطاب إسلامي حضاري عصري مؤهل لمحاورة الغرب. من هنا علينا أن نفتح القنوات في وجههم، وأن نمكنهم من الاحتكاك بطلاب العلوم الشرعية عندنا، وعلينا أن نشجعهم على المساهمة في مشاريع بحث وفي تأسيس مخابر بجامعاتنا، ترقية للفكر الإسلامي في مرحلة العولمة وحوار الديانات.

لقد آن الأوان لأن تتغير نظرة المشرع الجزائري إلى الشأن الديني، لا نقول أن الدولة الجزائرية ورثت تقاليد الدولة الكولونيالية في تسيير الأمور، ولما كانت تقاليد تلك الدولة مبنية على الاستخفاف بالمقومات وفي مقدمتها الدين

والعربية، واحتقار الإنسان الأهلي. فقد استمر هذا الوضع ذاته بعد الاستقلال رغم المحاولات السطحية التي حاول المشرع أن يكيف بها المدونات. إذ إن القوى التي أسست لسير الدولة الجزائرية كانت تتشكل من فئات تربت في كنف الإدارة الفرنسية وتطبعت بسلوكات الأجنبي التي هي سلوكات عدائية. فضلا عن كون المادة التشريعية نفسها هي نقل محض لقوانين الآخر واستنساخ لها.

لقد استمر هذا الوضع المستخف بالإسلام والمقومات، بل وتفاقم. وما زال ينتظر من الدولة الجزائرية أن تبذل الكثير من الجهد التسديدي في مجال تصليح نفسها من حيث أن تتجاوز آثار ذلك الواقع الاستبدادي الذي ما زالت الدولة من خلال هياكلها وسلطها تنظر به إلى الدين والمقومات.

ماذا تفسر الإعلان اليوم[8] مثلا في الصحافة عن التحضير لمشروع في إجراء عمليات مقايسة نسبة الكحول لدى السائقين؟ أليس هذا إجراء يقلد المشرع عن الآخر؟ ألا يتضمن مثل هذا التدبير الإقرار بحلية الخمر؟

إن هذه الدوائر قد أساءت التدبير لتنفيذ هذا القرار. فالرؤية التكييفية هنا قد تخفف من مشاعر المرارة التي يستشعرها المواطن المسلم حين يرى هذا الانتهاك السافر يصدر عن إدارة تزعم أنها ترعى مصالح أمة مسلمة.

وما أكثر الشواهد التي يمكن سوقها في هذا الصدد لإبراز مدى الهوة السحيقة التي تفصل رؤية الطبقات المتنفذة عن ثقافتنا الروحية وعن قيم وطننا ومقومات أصالتنا.

إن من كان عاجزا عن أن يتكلم بدارجة وطنه، وعاجزا عن أن يفقه مرامي مثل شعبي يتفوه إليه محدثه، وغير قادر على أن يورد حكمة أو قولا سائرا في سياق خطابي ما، لا يمكنه أن يزعم بأنه على تواصل وجداني كامل مع ما يسري في ضمير الأمة، ولن يتوقع عاقل منه أن يوفق في تفكير و تخطيط للأمة.

هوامش البحث:

[1] فرنسا مثلا.

[2] – من الواضح أن الإعلام الغربي أصبح يتكيف في تعامله مع أخبار العنف للأسباب التي تستهدف رعاياه، وتلك تطبيقة الترفع، وصرفا لآثاره بكيفية لا تبدي القابلية للتأثير السيكولوجي التي باتت تميز المجتمعات العربية. لقد رأينا كيف عصفت أحداث 11 مارس بمدريد، لأن العنف بات يكتسب من قوة التحول بالرأي العام ما يغير به من أوضاع الخارطة السياسية. والأمر يعود إلى مستوى التمدن الذي بلغه الغرب، إذ كلما ازداد الرخاء، كلما فقد الإنسان خصوصيات التماسك.

[3] مثل هذه التظاهرات الجماعية والتعسكرات المفتوحة تعد من الأجواء التي تستهوي الشباب، وهو ما نراه يتجسد في تظاهرات الصخب الموسيقي التي ينظمها الشباب في الخلاء، وبمخالفة القانون أحيانا. ولذلك تعمل الكنيسة على أن تتوسل إلى الدعوة بتنظيم ما يشبه هذه الفضاءات والديكورات.

[4] من آخر الندوات الإعلامية التي بثتها محطة 2 الفرنسية 30-03-2004، ودارت حول مسألة الدين، أكد بعض ممثلي الكنيسة ظهور نزعة روحية اجتماعية متزايدة تفتش عن الإيمان، لكنه من جهة أخرى أقر بأن الكنيسة لم تعد إلى الآن قادرة تستقطب الأوساط العريضة إلى حقل الروحيات.

[5] كانت حياة المسيح نفسها تجسيدا لتلك الشعارات، إذ لم يتزوج، وكذلك سير رجال الكنيسة المتميزة بالعزوبة والرهبنة. فالتثنية بواسطة حب المرأة –والرجل أيضا– يعد معارضة واضحة لقيم الإنجيل، لاسيما وأن الجسد في الإنجيل هو عنوان النجاسة ومناط الرغبة الشهوانية.

[6] -لا يزال الأمر موقوفا على قرارات فردية واجتهادات محصورة في القرى، إلا أن أول الغيث قطر كما يقال.

[7] من ذلك مثلا النشاط الذي يقوم به المدعو رشيد قاسي، وأعضاء جمعية Ni pute ni soumise، وعناصر جزائرية برزت في أوساط الحزب الاشتراكي الفرنسي... وكل منهم يعرف أن الطعن في الإسلام هو أفضل نشاط نضالي يضمن له البروز والقبول. إذ لم يجد هؤلاء المخترقون إلا وسيلة النيل من الإسلام فيفتحوه، ولن يزيد ذلك الحقد منهم على الإسلام إلا توسعا. فالفرنسيون الأحرار يعرفون أن سلالة الخونة لا تعادي شيئا إلا كان ذلك الشيء رفيعا ونبيلا وخيرًا.

[8] -Le Quotidien d'Oran 30-03-2004